الشخصيـــــات الثوريـــــة فـــــي روايـــــة" الـــــــلاز" للطاهـــر وطـــار

الأستاذة: نصيرة زوزو
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر- بسكرة

تشكل الثورة التحريرية مادة خصبة لم يغفل الأدباء الجزائريون من الاغتراف من معينها الرقراق؛ لإنتاج نصوص إبداعية أبانت عن عظم قدر هذه الثورة وصلابة مناضليها وثوارها، في الذود عن أرض الوطن السليبة، ونيل الاستقلال والتخلص من براثن الاستعمار الفرنسي الغاشم الذي جثم على البلاد وجهّل العباد سنين طوال.

إن حرب التحرير الجزائرية تعد« معلما بارزا في تاريخ الحركة الوطنية، بل إنها تشكل أكبر منعرج في تاريخ الجزائر».[1]

لقد« أصبحت الحرب تشكل تراثا يستند إليه الأدباء ويستوحون منه كتاباتهم(..) إذ يستحضر الكاتب الحرب بوصفها صراعا بين الكتلة الوطنية من الجزائريين والكتلة الاستعمارية من الفرنسيين» [2].

ولربما« كانت فترة الاستقلال أدعى- لما فيها من هدوء نسبي- إلى الميل نحو كتابة الفن القصصي. لكن صورة الحرب/ الثورة ظلت تلاحق كل الكتاب، سواء من باب الاستحضار فالحنين فالوطن، أو من باب الحنين فالنقمة فالنقد »[3].

إن« الأديب الجزائري والمثقف الجزائري عموما لم يتخلف ولم يتخل قط عن طبيعة سكان هذا الوطن المعروف في النضال والمقاومة من أقدم العصور والأزمان إلى الآن(...) لم يخل زمان ولا مكان من النضال والمقاومة في هذه الأرضية الطيبة ومع هذا الشعب الأبي النزاع إلى الحرية والاستقلال(..) فكيف يشذ عن طبيعة هذا الشعب في النضال والمقاومة أبناؤه الأدباء والمثقفون وهم بعض بل هم زبدته وخلاصته، فهم

النخبة الواعية المفكرة في كل شعب بل هم طلائع النضال والمقاومة، وهم إكسير الحياة والعامل المحرك لنهضات الشعوب» [4].

ومن ضمن الأعمال الروائية التي اتخذت من النضال والثورية مادة خصبة لأحداثها رواية(اللاز) للمرحوم الطاهر وطار، الذي يعد أحد كتاب جيل الثورة، جيل تحقيق الذات القومية والكتابة باللغة العربية.

المرحوم الطاهر وطار كاتب غزير الأدب، وتشكل روايته(اللاز) نموذجا عاليا للأدب الجزائري الحديث الذي استمد نسغه من حرب التحرير الجزائري الكبرى، وقد صدرت هذه الرواية عشية الاحتفالات الكبرى بالذكرى العشرين للثورة الجزائرية. انطلاقا من عظم قدر هذا العمل، جاءت هذه الدراسة لتلقي الظل عليها، محاولة مدارستها واستخراجها الشخصيات الثورية التي تزخر بها، وإبراز الدور الذي قامت به خلال حرب التحرير، ومدى تأثر هذا العمل بالثورة وإبراز قدرات صاحبها الروائية، وقبل الغوص في ذلك نود تقديم ملخص عن الرواية.

1- ملخـــص الروايـــة:

تحكي الرواية وقائعا وأحداثا وقعت قبيل ثورة التحرير الجزائرية أو خلالها، حيث إنها لا تشير بدقة إلى زمن حوادثها المفترضة.

تفتتح الرواية قصها على الزمن الحاضر من أمام مكتب المنح، حيث يتجمهر عدد من الناس في طابور طويل، راحوا يتذكرون خلال وقوفهم ذاك شهداءهم الأبرار، ويترحمون على أرواحهم، ويتغنون بمفاخرهم، ومن بين الحضور الشيخ الربيعي الذي فقد ابنه قدور حين كان هذا الأخير في طريقه باللاز إلى الحدود.

يتعالى بعد برهة صوت اللاز قائلا:(ما يبقى في الواد غير حجاره)، لتغرق الرواية فيما بعد في سرد تفصيلات الماضي، وتفتتح ذاكرة الربيعي عن آخرها؛ لتطلق العنان لمخيلته تتحس الجراح التي خلفها الاستعمار الفرنسي.

وبعامة تتحدث القصة عن شخصية اللاز اللقيط، الذي أراد تغيير مجرى حياته، فتحول إلى مناضل وثوري، ألقي عليه القبض من قبل القوات الاستعمارية، ليتمكن من الفرار ويصعد إلى الجبل، ويلتقي هناك بعدد من الثوار أمثال قدور وحمّو، وزعيمهم زيدان الرجل الثوري، الذي اغتيل في نهاية المطاف على مرأى من ابنه اللاز، بسبب

عدم تخليه عن أفكاره الشيوعية.

وتنتهي الرواية بالعودة إلى حاضر القص، ليظهر اللاز في النهاية كالتائه أو المجنون يردد أمام أسئلة الشيخ الربيعي جملة واحدة(ما يبقى في الواد غير حجاره)، هذا المقطع الذي يتكرر في أكثر من موضع ضمن متن الرواية.

2- تجلـــي الشخصيـــة الثوريـــة:

تعتبر الشخصية الثورية« نماذج خلقها الروائي، وحمّلها مضامين وأفكارا تحارب بها سلبيات الواقع، قصد الانتقال بهذا الواقع من حالة الانغلاق إلى حالة أخرى أكثر تفتـــحا وإنسانية، ومن ظروف السيطرة والكتب إلى ظروف الحرية والمساواة»[(5)].

من ثم فإن هذه الشخصية هي ذلك الإنسان الذي رفض شتى أنواع العبودية الاستعمارية، فكان عليه أن ينبذها ويثور عليها، رفض بعض العادات والتقاليد المضرة وطالب بغد أفضل بعد الاستقلال[(6)].

من هنا فإن« ثورة التحرير ستكون هي نقطة البداية، لكونها كانت حلقة مهمة من حلقات ثورة هذا الشعب، الذي استطاع بفضلها أن يخرج من تحت الانقاض بأفكـــار واتجاهات نابعة أساسا من العملية التطهيرية التي كانت نتيجة حتمية لمعاناة نفسية واجتماعية، خلال مدة الاحتلال مصحوبين بوعي شعبي كان ينمو يوما بعد يوم، وهي العملية التي أدت إلى إذكاء العمل الثوري، وجعلت الشعب يهب دفعة واحدة، مقدما بسخاء كل ما يملك وبإذلال كل ما يعز على النفس من أموال وخيرة أبناء كانوا معينا لم ينضب استمد منه الروائيون شخصياتهم الثورية»[(7)].

وسنحاول فيما يلي استعراض شخصيات الرواية الرئيسة، التي كان لها دور كبير في سير الأحداث وتطورها مبرزين في الوقت نفسه أبعادها الثورية.

2- 1- اللاز:

هو بطل الرواية وأبرز شخصياتها، تقدّمه الرواية على أنه رجل لقيط منبوذ من قبل أهل القرية، يقول عنه الراوي:

« كان الربيعي مثل كل سكان القرية، يبغض اللاز، ويتمنى من صميم قلبه أن تلحقه المصيبة القاضية... يرتكب جريمة لن يخرج بعدها من السجن، أويقضى عليه سواء من طرف العسكر أو من طرف الثورة... هذا اللقيط الذي لا تتذكر حتى أمه من هو أبوه(..) برز إلى الحياة يحمل كل الشرور... كان في صباه لا يفارق أبواب

وباحات المدارس يضرب هذا ويختطف محفظة ذاك، ويهدد الآخر(..) لم يكن يجدي معه لا تدخل الآباء ولا تخل(الشامبيط)،(..) مكابر، معاند، وقح متعنت(..) كلما كبر واعتقد الناس أنه سيهدأ أو على الأقل تخف وطأته، ازداد سعاره، ونمت فيه شرور لم تكن تتوقع، من السطو على المتاجر ليلا إلى الخمر إلى الحشيش، إلى القمار.. حتى بلغ معدل دخوله السجن ثلاثين مرة في الشهر...»[8].

لقد كان لهذه الحياة اللعينة التي عاشها دور كبير في أن فجرت داخله رغبة شديدة في الانقلاب، رغبة حثيثة في التخلص من رداء المهانة إلى حياة جديدة اختار فيها أن يكون مناضلا ثوريا ويلتحق بصفوف الفلاقة.

وها هي أول محاورة جرت بينه وبين زيدان أفصح فيها عن نيته في الالتحاق بالمناضلين:

« – عمي زيدان، أريد أن أسألك.

– خير.

– هل تعرف" الفلاقة؟

– ولماذا هذا السؤال؟

– حتى أنت لا تثق بي؟

طأطأ رأسه في خجل. لأول مرة أراه خجلا، وتركني مع حيرتي، لماذا يسأل؟ ماذا تحرك في ضميره؟ هل له ضمير؟ هل أصارحه بالحقيقة الكبرى(..) وقبل أن أقرر مع نفسي رفع رأسه:

– إذا كنت تعرفهم اسألهم هل يريدون موت القبطان؟ وهل يقبلونني معهم إذا ما قتلته؟

– ماذا تقول يا اللاز

– أريد أن أتخلص من اللاز ولد مريانة»[9].

لقد كان اللاز يحمل ثقلا كبيرا على كاهله وهو أنه لقيط، لذلك كان يريد أن يتخلص من هذا الحمل، ويعمل عملا مفيدا وعظيما يجعله بمصاف الشرفاء، ويغسل به صفة اللقيط التي ألصقت به وأرهقت باله، ويتجلى هذا الأمر بحق في العبارة الأخيرة من المنقول السابق:(أريد أن أتخلص من اللاز ولد مريانة).

وليس هذا الأمر فحسب سر رغبته في التغيير، فاللاز مواطن جزائري أولا وأخيرا، لذلك كان انقلابه إلى مناضل فذ بإيعاز من شعور داخلي منبعث من تعلقه بوطنه وحبه لأهل وطنه المعذبين مثله، فقد كان يعيش مثل بقية أهل قريته عيشة الكلاب، عيشة الذل والهوان تحت وطأة الاستعمار الفرنسي.

التحق اللاز بالثوار، ليتم إلقاء القبض عليه من قبل الجيش الفرنسي، ويتهم بتهريب الجنود من سرية الضابط(القبطان) إلى الثوار، وكان قد وشى به بعطوش أحد الخونة والموالين للاستعمار.

يتعرض اللاز إلى استجواب طويل من قبل الضابط، الذي كان فيما مضى تربطه صداقة وطيدة به. لقد تعرّف اللاز عليه في اليوم الثاني من حلوله بالقرية، كان يلعب معه الورق ويسقيه الخمرة كما كانا يشربان معا.

تصور الرواية الضابط رجلا شاذا مخنثا لا يتورع عن ممارسة شذوذه، وفي هذا اختيار موفق من قبل الروائي؛ للتنديد بلا أخلاقية الاستعمار وانحطاطه. وإذا ما مارس هذا الرجل شذوذه مع اللاز، فإن كل شرور هذا الأخير انقلبت رأسا على عقب، إذ تحوّل بين عشية وضحاها إلى فدائي عظيم نغّص على الضابط حياته إثر فترة اعتقاله، فكوّن بذلك صورة إيجابية للرجل الجزائري المتفاني الذي استجاب لنداء الثورة الكامن بداخله أساسا.

وهو شبيه في هذا بشخصية بعطوش، الذي كان في البدء عميلا للجيش الفرنسي، لتحدث له إحدى نوبات جنون وزلزال داخلي عنيف، قتل على إثره القبطان، وأنهى بذلك صراعا داخليا كان يتأجج بصدره. تصف الرواية المشهد كما يلي:

« ثم هوى عليه[القبطان] بيدين مرتجفتين، وانهمك في خنق أنفاسه بكل ما أوتي من قوة. وبعد فترة استل خنجره وراح يطعنه أينما صادف... ظل يطعن ويطعن، حتى انفتحت عيناه.

لقد زال الضباب. زال كل أثر للضباب أجال نظره في القاعة، وراح يحدق في الجثة ويتنفس من أعماقه»(9).

لقد قتل بعطوش القبطان وأشعل فيما بعد براميل البنزين وفجّر الثكنة، وفي هذا تفجير للصراع المرير الذي عاشه قبيل لحظات من إقدامه على هذا الفعل، كما يحمل قتلا

للفرنسي في عقر داره، وانتصارا واضحا للثورة ونجاحا عظيما لأبطالها ومفجريها.

بعطوش– إذن– راعي العجول، والذي مثّل في الرواية أحد الخونة المنخرطين في خدمة الجيش الفرنسي، صحا في النهاية صحوة قادته إلى النضال والجهاد، وهو بهذا يعطينا صورة جميلة عن الجزائري بحق، الجزائري المحب لوطنه حتى النخاع.

بعد الذي فعله بعطوش، اقتحم فدائيون المكان جارين معهم البغال والدواب، فقاموا بشحن الذخائر، لينطلقوا بعدها تاركين خلفهم تتالي الانفجارات فيما تبقى من دبابات.

وبهذا تتضافر الجهود معلنة عن توحد شعبي والتحام جماهيري، أفرز النجـــاح والانتصار، على الرغم من قلة العتاد وضآلة الإمكانيات. إنها صورة للصراع والحرب بين قوتين متعارضتين، فيها تصميم على النصر، ولم تكن الثكنة في القرية إلا رمزا للاستعمار، والتي كانت هدفا من أهداف هذا الصراع، ثم نسفت في نهاية القصـــة بأكملـــها وفي هذا نسف للقوى الاستعمارية دون رجعة وانتصار للثورة والفدائيين.

لقد كان لهذا النجاح أسبابا عديدة منها جلد المعتقلين وصمودهم أمام آلة التعذيب الفرنسية، إذ بعد إلقاء القبض على اللاز تم جره إلى قاعة التعذيب. يقول الراوي:

« وما إن أنيرت الأضواء حتى جردوه من الثياب وأوثقوه بأسلاك نحاسية وقذفوا به فوق منضدة خشبية ثبتت على سطحها مسامير حادة وانهمكوا يجلدونه...

هذه العملية الأولى، إن لم أعترف أثناءها تلتها مباشرة العملية الثانية... الغطس في الماء مع الكهرباء. وإن لم أعترف أثناءها جاءت العملية الشاقة... اقتلاع الأظافر »(10).

يسير المشهد بعد هذا على شكل مناجاة داخلية يحادث فيها اللاز نفسه عن بشاعة التعذيب الذي ينتظره، ويسائل نفسه إن كان يستطيع الصمود والثبات أمامه، لينتفض مرات عديدة متذكرا حاضره مقارنا بينه وبين ماضيه التعيش الذي يأبى أن يعود إليه مهما حدث. يقول:

« مازلت اللاز الحقيقي. لم ينته اللاز الأول بعد... يبدو أنه لن ينتهي أبدا. لا لا لن أعترف وإن اقتضى موتي تحت التعذيب، لن أسلم اللاز الحقيقي مهما كان الثمن، لا أستطيع ذلك. لن اعترف مهما كان الأمر، تصميم. تصميم فعلي»(11).

إن شخصية اللاز – إذن– من خلال ما ذكرنا هي شخصية متنامية لا تثبت على حال واحد ضمن أحداث الحكاية المفترضة، إذ نرى أن هناك اختلافا روحيا وفكريا وانقلابا نفسيا داخليا بين ما كانت عليه في الماضي وما تعوّل عليه في الحاضر أو ما طرأ عليها من تغييرات طوال مسيرة الأحداث الروائية.

فهي، وإن كانت لم تمت بصلة للثورة والمناضلين في البداية، نلفيها انقلبت انقلابا مفاجئا زلزل حياتها، وجعلها تعبّر عن ذلك في رغبة حقيقية في الاستشهاد. يقول اللاز مناجيا نفسه:

« ليتك الآن في الجبل تمسك رشاشا وتنبطح وراء صخرة كبيرة وتضغط بإصبعك لتلهب النهار، تحصد أعداءك الذين يحاولون عبثا التقدم من موقعك، تضغط وتضغط، حتى يحمر الرشاش ولا تبالي وإذا ما جاءت قذيفة مدفع أو طائرة تهوي عليك، تردد في ارتياح: نلت حقي، نلته كاملا، أفرغت شحن حقدي وحقد الأشقياء البؤساء وتستسلم لأحضان زيدان، يقبلك القبلات الأخيرة... وهو يناغيك: وداعا بني العزيز، لقد أديت رسالتك، ويستخلفك إخوانك الصغار وأنا وعمك حمو وكل التعساء الأشقياء»[12].

وإذا اتهم اللاز بعلاقته بالمناضلين، إلا أنه أنكر هذا الاتهام، وراح يسوّف ويماطل ثم نلفيه يطرق هنيهات والدماء تسيل من أنفه، والجراح تملأ وجهه والسلاسل تقيد يديه، بقي صامدا لا يعترف، وفي هذا برهان على ثورية الثورة وثورية رجالها، لينفجر أخيرا في وجه الضابط مزمجرا في هستيريا قائلا:

« مجاهد، مجاهد، مسبل، مناضل، فلاق، خدعتك أيها المأبون القذر»[13].

ها هي الصرخة المكتوبة تنبثق أخيرا، إنها صرخة أفرغتها روح متأججة بالغضب والحنق، وملأى بحب الثورة مع رغبة جامحة في التخلص من براثن الاستعمار المرير المتمثل هنا في شخص الضابط، الذي نعته بأبشع الصفات.

لقد كان اللاز الرجل المنبوذ من قبل أهل القرية، وكان ما إن يلمحه أحدهم لا يفكر إلا في الشر الذي يمكن أن يلحقه به، لم يتصوره الشعب ولن يتصوروه واحدا منهم، أو قد يعمل ذات يوم من أجل صالحهم العام، إنهم إن رأوا جثته ملقاة في الشارع تركوها في مكانها تتعفن، بل قد يبصق عليها الكثيرون، وها هو يتحول في لحظات إلى مناضل صامد.

إن اللاز في هذه الرواية يمثل الشعب الذي طحنه البؤس والقهر والشقاء. إنه الوطن... إنه الجزائر الثائرة في وجه الاستعمار. يقول عنه والده زيدان حين التقيا في الجبل بعد فرار اللاز من الثكنة وقبضة المستعمر:

« فيك(..) بذور كل الحياة.. كالبحر... لا إنك الشعب برمته... الشعب المطلق، بكل المفاهيم...

هذا اللاز، ليس غنيا وليس واعيا للفقر... ليس ثوريا، وليس مستسلما... أمي لا كالأميين، وشاب لا كالشباب، هذا اللغز. هذا اللاز. كيف أصنع منه شيئا؟ لعلني بالحب فقط أستطيع الوصول إلى أعماقه...

المهم أنه مدرك، مدرك بغريزته، كالكلب أو كالقط أو كأي حيوان... مدرك لعفونة الوجود، ويرفضها بطريقته الخاصة...إنه البحر بعينه... بل الشعب برمته»[14].

إن اللاز كلمة أجنبية من معانيها البطل؛ أي القادر على أكل جميع أوراق اللعب، وقد كان بطلا بحق. إنه يمثل بذور الحياة والاستمرارية وما عبّرت الأعمال التي قام بها إلا عن صورة لنفسه المتحدية، صورة لنضال الشعب الجزائري المتحدي الذي كان اللاز يحمل في طياته جميع بذوره.

إنه نموذج لكل الفئات الجماهيرية التحتية التي تعاني محنة الاضطهاد والقهر الاجتماعي. إنه الصورة الكلية المصغرة للشعب الجزائري. إن شخصية اللاز هي الأساسي الروحي للقصة، وتعبر في أبسط مفهوماتها عن صورة الشعب الثائر والرافض لشتى أصناف العبودية والإذلال. إنه الشعب بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، إنه بكل صوره ينضم تحت لوائه، لواء الشعب الجزائري بكل جريانه اللاهــب من أجل البحث عن ذاتـــه وهويته الضائعة تحت ظلم الاستعمار.

2- 2- زيــدان:

لقد كان زيدان قائدا للوحدات في الجبل، يحترمه كل من يعرفه، ويأتمر بأوامره من يحتمي تحت لوائه. كان همه تكوين الجميع وتربيتهم حربيا، وفكّر أن يعمل على تكوين القادة أولا. يقول حين جاءته مهمة وأخذ يفكر فيمن ينوب عنه:

« من إذن يا ترى؟ كان المفروض أن لا أوزع طاقتي في تربية الجميع دفعة واحدة، وأن أكون القادة أولا... النخبة، الطليعة... كنت أرى أن جيشا لابد أن يتضخم في

يوم من الأيام فجأة... فتكون هذه النواة الأولى متخرجة في فن القيادة...»[15].

زيدان هو والد اللاز، ويمثل في الرواية الشخصية المثقفة والفتيلة التي كانت تشتعل ببطء وتجر في طريقها الجزائريين الأحرار، الذين رفضوا استبداد القوى الاستعمارية وأبوا إلا المشاركة في الثورة لتحرير البلاد والعباد.

لذلك عمد إلى تغيير مسار أخيه حمو وكذا قدور وتطويعه لخدمة الجزائر وتحريرها. يقول:

« الثورة تحول الإنسان، ومادامت عميقة، فإن التحول يحدث بسرعة، يجب أن يتحول قدور إلى مناضل ثوري، متطهر من العقد والرواسب... يجب أن يرتفع ويرتفع إلى أن يصل مستوى الثورة»[16].

لقد أدرك زيدان بفكره النبيه أن فرنسا عدو مشترك لجميع الجزائريين لا على المقاومين في الجبل فقط، لذلك وجب الدفاع عن الوطن وتخليص العباد من قهر الاستعمار الفرنسي. وهذا ما عمد على ترسيخه في ذهن ابنه اللاز أيضا. يقول له في إحدى المواضع:

« يجب أن تغير الحياة يا اللاز يا ابني. عليك الآن أن تعمل في خط واضح ومن أجل هدف واضح سأتركك بعد قليل، لألتحق بالجبل، سلم على أمك، واتصل بعمك حمو لتعمل معه... اعرف كيف تتصل. كلمة السر ليثق بك هي هذه: ما يبقى في الواد غير حجاره... رددها أمامه ثلاث مرات...»[17].

ما يبقى في الواد غير حجاره هو شعار الثوار وكلمة السر بينهم خلال نضالهم، شهدنا حضور هذه الجملة مع الصفحات الأولى للرواية، وفي أكثر من موضع ضمن متنها، ليكون شعار القصة في نهايتها، يلهج اللاز بذكره ويردده على مسامع من يحدثه، وفي ترديد هذا الشعار دليل على حتمية نجاح الثورة وانتصار المجاهدين وبقاء الجزائر للجزائريين مهما طال الزمن.

لقد مثّل زيدان صورة المثقف الذي آمن بقضيته ونبلها وحتمية انتصارها، كما مثل شخصية المؤمن بأفكاره ومعتقداته، المدافع عنها حتى الرمق الأخير من حياته، وقد لقي زيدان في نهاية القصة حتفه، إذ اغتيل بسبب أفكاره الشيوعية التي رفض الانسلاخ عنها. قتل رفقة عدد من أصحابه الذين آمنوا بالمعتقدات نفسها، واختاروا الموت على تراجعهم المبدئي.

لقد كان لثقافة زيدان وتعلمه دور كبير في تفكيره السليم الصائب، وإدراك أن بقاء فرنسا في الجزائر فيه استمرارية للفقر والجوع والبؤس. من ثم بدأ قبل الجميع الاشتغال في السياسة والتمرد على العدو، مثل القادة الكبار. لقد كان هدفه الأوحد إخراج الدخيل من أرض الجزائر. يقول:

« ولست أدري ما إذا أثرت فيه بتأكيدي أن العمل العاجل أمامنا هو القضاء على العدو المستعمر أولا، وبعد ذلك ننصرف إلى شؤوننا[18]».

لقد كان زيدان يحمل فهما واعيا مسؤولا، فالثورة عنده تهدف إلى الخلاص الإنساني ومن لا يحمل حب الإنسانية فإنه عاجز عن الإسهام في تحريرها. إن الثورة ليست بطشـــا وسفكا للدماء، بقدر ما هي تجسيد لفعل إنساني خلاق.

تظهر ملامح الوطنية جلية على شخص زيدان في مواطن كثيرة من الرواية، وهي شخصية تتنامى وتحلق لتحمل في الأخير شارة الرمز العام لنضال كل القوى الثورية في العالم.

2- 3- حمـــو:

هو رئيس المسبلين وعم اللاز، كان معلما بسيطا للقرآن، ليتحول إلى عمل مرهق في كهف ضيق وسط الأدخنة يصارع الفرن لتسخين ماء الحمام.

يصف حمو معاناته إلى صديقه قدور قائلا:

« يا ابن عمي هذه والله ما هي خبزة أربعون دورو في اليوم، وأربعة عشر فما مفتوحة. الدقيق بعشرين دورو الكيلو... والزيت بأربعين والصابون بخمسة عشر القالب، وزد، وزد." معيشة" كلاب والله»[19].

وسط هذه الحياة البائسة اجتماعيا والمرهقة بعذابات المستعمر، ما كان هناك من سبيل إلا الثورة، إنه الطريق الأوحد إلى الخلاص.

إن الروائي الذي يتخذ من الثورة مادة لعمله الإبداعي« يمهد لعملية تحول البطل بتصوير الحياة الاجتماعية المزرية التي يعيشها المواطنون. الفقر والجهل والمرض ومظاهر الاستغلال والقهر والتعسف وكل الصور المشينة التي من شأنها أن تحمل على كره الاستعمار ونبذه، بل وتحرص على الثورة عليه»[20].

بدأ اهتمام حمو بالنضال والثورة بإيعاز من أخيه زيدان، فأضحى يهتم بالسياسة

وشؤونها، ولا يتحدث إلى صديقه قدور إلا عن الثورة:

« رد قدور على حمو الذي لم يعد يحدثه، كلما تقابلا، إلا عن الحرب والإخوان ونسي تماما المصائب الثلاث: دايخة، ومباركة، وخوخة... والأفواه العشرة التي تقتات من أربعين دورو التي يكسبها من عمله المرهق الشاق... وانغمس منذ شهر في الحرب... يجمع أخبارها، يروجها بين المعارف والثقات... مبشرا بتغيير الوضع وتبديل حال بأخرى، لا يدري كنهها، ولو أنه بحدس بدائي جدا، وبغريزة غامضة كثيرا... يتصورها أفضل وكفى»[21].

لقد بدأ حمو ينغمس في الثورة تدريجيا، لينسى بها بنات المعلم الثلاث اللواتي كن يلاحقنه، ويغفل عن الأفواه التي كان يطعمها. لقد كان لكل هذا دون شك دور كبير في أن ازدادت رغبته في التغيير مثلما حدث للاز، ليرى وجهه النور، ويذوق طعم الحرية، التي مهما كان شأنها ستكون لا محالة أفضل من الحاضر التعيس المرير الذي يعيشه رفقة أهل قريته. يقول مخاطبا قدور:

« الصح هو الحق... وهذه البلاد ليس فيها حق، لكن سيأتي يوم ولا يبقى في الوادي إلا الحجارة، إلا الصح، إلا الحق.

يخرج الفرنسيون، يفقر الأغنياء، وينعدمون، ينام جميع الناس على الشبع، نقرأ كلنا، نتعلم العربية والرومية بما فيها الانجليزية والألمانية والروسية.

يصبح الحاكم من عندنا– الشامبيط والخوجة، والقائد والشرطي منا...

نصير فاهمين نظيفين، جميلين، محترمين كالفرنسيين.

لسنا وحدنا نطمح لكل هذا... هناك أيضا المصريون، والتونسيون، والمغاربـــة، وحتى الكفار أيضا... فيهم من يعاني مثل وضعنا، ففي الهند الصينية أناس مثلنا، ولو أن دينهم يختلف عن ديننا... كان يحكمهم الفرنسيون فثاروا عليهم وغلبوهم، وهربت فرنسا منهزمة...»[22].

لقد اقتنع حمو بكلام أخيه زيدان اقتناعا كليا، وأخذ يكرره على مسامع قدور كلما التقيا، متذكرا في الوقت نفسه مرارة الاستعمار وقسوته. يقول الراوي:

« إنه يتذكر جيدا كيف كانت الطائرات تقذف مئات القنابل تنفجر هنا وهناك وفي كل مكان، وكيف كان هو وكل أفراد دواره يتراكضون في الحصائد كالمجانين، والنيران تلتهب من تحتهم ومن فوقهم...

آه... ذلك الحمار المسكين كان واقفا يحاول فهم ما يجري حوله، مرت طائرة منخفضة فوقه... رشته بحبل من الرصاص... حبل أحمر كنت أراه... ظل المسكين واقفا لحظات، ولما حاول أن يتقدم إنشطر إلى اثنين...»[23].

لقد سرت الثورة في دم حمو، واشتد حماسه، فأخذ ينصح قدور بضرورة الانضمام إليها. ولم تقتصر دعوته على قدور فحسب، بل بجميع الشبان وكل من يراه. لقد صار يختفي بين الفينة والأخرى، ويرد على كل من يسأله عن اختفاءاته هذه بقول واحد: (الضيم يهيج كل الناس).

لقد أدرك حمو أن الوسيلة المثلى للتخلص من حياة العذاب هي الثورة. يقول مخاطبا قدور:

« حمو يرى أن الوضع الذي أصبح عليه الناس من فقر وبؤس وعري وجهل ومرض وظلم وجور، يجبرهم على العمل من أجل التخلص منه. وهذا العمل ليس سوى الثورة، ليس سوى التمرد على الأسياد، على كل شيء، على هؤلاء الأسياد الذين- كما يقول أخوه زيدان- لم يفهموا ولا يريدون أن يفهموا إلا أمرا واحدا، هو مصلحتهم... مصلحتهم التي تتعارض مع مصالح جميع الناس... بل تقتضي أن لا يكون لأي أحد عداهم، مصلحة ما...

هكذا خلقوا كما يقول زيدان»[24].

لقد صار حمو يتحدث بلغة زيدان الذي شرب من كأسه حتى الثمالة، فصار يردد كلامه لجميع الناس ويحثهم على ضرورة الالتحاق بالفدائيين، لأنه لم يعد هناك من بد غير الثورة... التي تمثل الحاضر. يقول مخاطبا قدور:

« نحن لا شيء يربطنا بالماضي، وأنتم لا شيء، يدفعكم إلى المستقبل، ولم يبق بيننا إلا رابط واحد، هو الحاضر... هذا الحاضر الذي أتعاون وزيدان أخي، وكل الفقراء على صنعه»[25].

لقد كان حمو أنموذج الرجل العفوي والواعي في الوقت نفسه، وإن لم تظهر له ملامح واضحة في العمل الروائي؛ انطلاقا من أنه كان بوقا لكلام أخيه زيدان، إلا أنه يمثل بحق مركبا مستخرجا من التربة الجماهيرية بكل ما تختزنه من استلاب وظمأ إنساني وتوق إلى الحرية ورفض لكل أنواع الفقر والاضطهاد والضياع.

2- 4- قــدور:

هو الصديق المقرب لحمو، كان يعمل في متجر للمواد الغذائية، وكان يحب السهر كثيرا، لكن ليس السهر في المقاهي يلعب الورق أو الحجر، إنما يحب السهر تحت جدران منزله وبالقرب من باب دار زينة حبيبته، حيث يفرش كيسا ويجلس هو وصديقه حمو ساعات وساعات يتجاذبان أطراف الحديث.

لقد كانت زينة أولى اهتمامات قدور، ولم يكن يعطي أي اهتمام للسياسة وأمور الثورة. يقول عنه الراوي:

« الحرب في تونس وفي المغرب، وفي الهند الصينية..! إن ذلك سياسة وقدور لا يهتم بالسياسة، وحتى خطب الإمام يوم الجمعة لا يفقه منها إلا الحث على التــبرع بالــمال والحبوب، رغم أن المدرسة والمسجد تم بناؤهما منذ سنة أو يزيد..»[26].

لقد كانت لقاءات حمو وقدور كثيرة، ولما كان حمو يعمل على تجنيد الشبان، ثم لما تشبعت روحه بالثورية أراد أن يسرب شيئا منها إلى قدور. كلام حمو الكثير المستوحى من كلام زيدان، ما كان يفهمه قدور كثيرا. لقد اختلطت عليه الأمور في أكثر من مرة. يقول عنه الراوي بعد حوار طويل مع حمو:

«... أمام هذا المنطق يعجز قدور عن طرح أسئلة أخرى، ويستغرق في دوامة من التفكير.

السياسة مرض، وزيدان أعدى أخاه... ولو أن كل ما يقولانه صحيح، الفرنسيون ليسوا منا. هذا أعرفه من قبل. ولقد جاءوا بلادنا ظلما، وجاءوا من بلد آخر يسمى فرنسا (..) كلام حمو هذا صحيح...

إلا أن إخراج الفرنسيين أمر مستبعد جدا، جدا... هم أقوياء، نحن ضعفاء... وحمو لم يحدث جميع الناس حتى يقنعهم»[27].

كان قدور يرى أن إخراج فرنسا من الجزائر أمر صعب إن لم يكن مستحيلا، فقوتهم تستدعي بقاءهم بأرض الجزائريين الذين لا يملكون ما يزحزحون به قوة عظمى مثل فرنسا.

حينما اشتد حماس حمو للثورة والنضال كان قدور يرى أن الحرب تعم يوما بعد يوم، وفرنسا يزداد تكالبها يوما فيوما، وعلى الرغم من ذلك لم يعد بإمكان أحد أن يظل محايدا يواصل عمله في الدكان أو غيره. لقد انتهت كل معالم الحياة العادية أو

تكاد. وهذا ما حاول حمو إفهامه لقدور، عليه أن يختار بين الثورة وبين الفرنسيين والعملاء، والحياد بحد ذاته يعتبر تحيزا للعدو وعدم تضامن مع إخوانه.

في إحدى لحظات المحاورات الطويلة بين حمو وقدور تحدث المفاجأة وينقلب قدور، دار في إحدى هذه المحاورات مايلي:

« – يا ابن عمي في حين أنا غاطس... أنت متردد

– لابد، لابد أن أنضم إليكم... إنني معكم، واحد منكم. إذا خرجت فرنسا أتزوج زينة وأشترى الحمام(..)

– أنت الآن واحد من المجاهدين... سنتفق فيما بعد على كيفية العمل(..).

ومنذ الغد، بدأ العمل مع حمو... شراء الأدوية، والأحذية والمواد الغذائية، وإرسالها إلى حيث لا يدري... وكم ذهل حين رأى حمو الفقير البئيس، يخرج الملايين من جيبه، بينما عائلته تتضور جوعا، ولباسه ممزق رث كالعادة، بل وعمله الشاق لم يتغــير، وشعر بعطف واحترام لهذا الصديق العجيب... وفهم أكثر من قبل أن الثورة، أن هذا العمل الذي يقوم به حمو وزيدان، وكل الفقراء وحتى هو أخيرا، عمل جاد عظيم، لابد أن يغير الأوضاع فعلا، كما يقول حمو، أكثر من ذلك شعر باحتقار المال الذي كان يظن أنه سر الحياة»[28].

تواصل العمل بعد هذا وتعرّف قدور على كل المنخرطين، على أغلب سكان القرية، وصار ينوب عن حمو حين يتغيب في مهام أخرى، كما تعرّف على اللاز،(في الجبل عرف زيدان الذي أمره بأن يساعد المسؤول المالي في عمله، كما كلفه بالانضمام إلى الفرقة الثالثة التي كلفها زيدان بعملية قطع الأعمدة الهاتفية وزرع الألغام على المسالك الجبلية وإحراق ضيعة المعمر شيخ بلدية القرية.

واصل قدور عمله الثوري في تفان كبير إلى أن جاء يوم إلقاء القبض على اللاز الذي أخذ يصرخ لينبه قدور إلى الخطر المحدق به، ففر بعيدا عن القرية رفقة سي الفرحي.

قدور صورة للبرجوازي الصغير، بكل ما تتصف به هذه الطبقة من زئبقية في الآراء والمواقف، وقف في البداية محتارا في عملية الخيار بين الالتحاق للثورة أو الوقوف على الحياد، على أنه لم يملك في نهاية المطاف غير خيار الثورة بعد لحظات من

الذهول غاص فيها عقله وتاه عن أرض الواقع على عالم الإغفاءات والغياب عن النفس.
إلى جانب هذه الشخصيات الثورية، ظهرت في الرواية شخصيات ثانوية أسهمت في دفع أحداث القصة ورسم أجوائها البطولية والنضالية، وكان لها الدور ذاته الذي كان للشخصيات الرئيسة التي عملنا على مدارستها آنفا، فقد قدمـــت هذه الشخصيات الغـــالي والنفيس من أجل أن تنال الجزائر حريتها، ونذكر منها على سبيل المثـــال: سي احمزي، وسي الفرحي، والكابران رمضان، والناصر، وسي مسعود وعلاوة.

لقد استطاع الطاهر وطار بحق أن يرينا صورة جميلة عن إحدى قرى الجزائر الصامدة، وهي تعيش لحظات اشتعال فتيل ثورتنا المجيدة، لحظات القهر والقلق والتحفز لهذه الثورة، يموج فيها سكان طيبون وثائرون في الوقت نفسه، شبان كانوا يعيشون حياة ذل وضياع وقهر واستعباد، فلم يجدوا بدا غير ضرورة تغيير حياتهم برمتها، تغيير أوضاع بلادهم الذي تنتهك حرماته يوما بعد يوم، فهذا اللاز الشاب اللقيط العربيد الشرير صار مناضلا عنيدا، وهذا حمو العامل الأمي الذي ما كان يعرف غير كهفه البائس الذي يشتغل به، وبنات المعلم الثلاث صار يحمل شعلة الثورة بيده ويوقدها في روح كل شباب القرية، أو لهم قدور، الذي ما كان يعنى بأمور السياسة والثورة، لينقلب بين عيشة وضحاها ويصعد الجبل تيمنا بصديقه حمو وبقية المجاهدين، أضف إلى ذلك أسماء كثيرة ساندت الثورة وقدمت ما أمكنها لنجاحها.

لقد اتخذ وطار الثورة الجزائرية بكل ما تزخر به من تضحيات جسام وانتصارات مادة لمسرح أحداث قصته، فرسم بريشة الفنان الأصيل والمجاهد في الوقت نفسه المفعم بروح النضال والثورية صورة واقعية جميلة عن حقبة هي من أجل حقب تاريخنا المجيد.

لقد اتخذ وطار من سيرة بعض الشخوص الروائية مادة خصبة للغوص في تفصيلات المقاومة والنضال، فرسم من جهة حياة بعضهم التي يغمرها العوز والضيق، ومن جهة أخرى قدم مشاهد قاسية تراءى فيها التعذيب في أقسى صوره، كما قدم صورا أخرى للاغتصاب في أبشع صوره وللذبح في أشد عنفه.

إن رواية اللاز تمتاز بكل عناصر الكتابة الثورية والفن القصصي الأصيل الممتع، بارعة في التصوير الواقعي والتعبير الإيحائي، وبارعة أكثر في تمجيد النضال. لقد استطاعت بحق أن ترسم لنا وجها صادقا من وجوه الثورة الجزائرية الخالدة.

إنها رواية ثورية بكل المقاييس، بل إن وطار يصرح في صفحة الإهداء أولى عتبات النص بالجملة التالية:(إلى ذكرى... جميع... الشهداء)، وهي العبارة التي تفجؤ القارئ منذ الوهلة الأولى وتغريه بالقراءة، وتجلي عن بعد الرواية الثوري.

الهوامـــش:

(1) مخلوف عامر، توظيف التراث في الرواية الجزائرية" بحث في الرواية المكتوبة بالعربية"، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، ط1،(د.ت)، ص 65.

(2) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(3) المرجع نفسه، ص 72.

(4) محمد الصالح رمضان، أدب النضال والمقاومة في الجزائر في العهد الاستعماري الفرنسي(1930– 1954م)، مجلة الثقافة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ع 116، 1998، ص 11– 12.

(5) بشير بويجرة محمد، الشخصية في الرواية الجزائرية(1970– 1983)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،(د.ط)،(د.ت)، ص 70.

(6) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(7) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(8) الطاهر وطار، اللاز، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص 9– 10.

(9) المصدر نفسه، ص 211.

(10) المصدر نفسه، ص 64.

(11) المصدر نفسه، ص 77.

(12) المصدر نفسه، ص 78.

(13) المصدر نفسه، ص 63.

(14) المصدر نفسه، ص 123.

(15) المصدر نفسه، ص 141.

(16) المصدر نفسه، ص 49.

(17) المصدر نفسه، ص 56.

(18) المصدر نفسه، ص 85.

(19) المصدر نفسه، ص 22.

(20)مخلوف عامر، توظيف التراث في الرواية الجزائرية، ص 66.

(21) المصدر نفسه، ص 35.

(22) المصدر نفسه، ص 37.

(23) المصدر نفسه، ص 36.

(24) المصدر نفسه، ص 41.

(25) المصدر نفسه، ص 42.

(26) المصدر نفسه، ص 21.

(27) المصدر نفسه، ص 37– 38.

(28) المصدر نفسه، ص 42– 43.